إذا تاهت بنا الدروب

تأملات في الفكر والاعتقاد

عمر السنوي الخالدي

الألوكة
www.alukah.net

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إِذَا تَاهَتْ بِنَا الدُّرُوبُ

-تأمّلات في الفكر والاعتقاد-

بقلم

عُمَر السِّنَوِيّ الخَالِدِيّ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

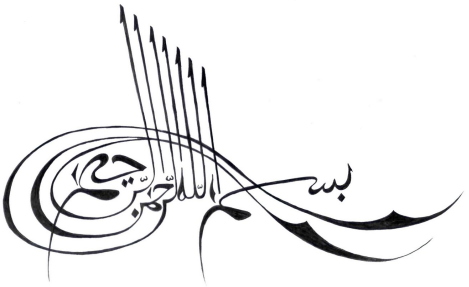

اَللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ ، أَهْلَ الثَنَاءِ وَالمَجْد ..
اَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ محمّد ..

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يَتَبَادَرُ إِلَى اَلذِّهْنِ -أَحْيَانًا- لَدَى بَعْضِ اَلْغَيُورِينَ عَلَى اَلدِّينِ اَلسَّاعِينَ لِإِحْيَائِهِ وَرُؤْيَتِهِ مَرْفُوعَ اَلرَّايَةِ، عَظِيمَ اَلْمَكَانَةِ فِي نُفُوسِ اَلْخَلْقِ: أَنَّ مِنَ اَلْخَطَأِ مَا يَسْمَعُونَهُ مِنْ قَوْلِ اَلْقَائِلِ: (أَيُّهَا اَلنَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالرُّجُوعِ إِلَى اَلدِّينِ)؛ لِأَنَّ اَلدِّينَ لَيْسَ فِي اَلْخَلْفِ، فَيُرْجَعُ إِلَيْهِ.. وَإِنَّمَا فِي اَلْأَمَامِ، فَيَجِبُ أَنْ نَتَقَدَّمَ نَحْوَهُ، فَهُوَ اَلسَّابِقُ اَلَّذِي لَا يَتَقَدَّمُهُ أَيُّ شَيْءٍ، وَلَا يَلْحَقُ بِهِ أَيُّ فِكْرٍ أَوْ دِينٍ آخَرَ... بِحَيْثُ لَا يَكُونُ لِبَعْضِ اَلنَّاسِ حُجَّةٌ فِي تَسْمِيَةِ اَلْمُتَمَسِّكِينَ بِهِ: (رَجْعِيُّونَ) -ذَمًّا-، وَإِنَّما اَلْحَقُّ أَنْ يُسَمَّوا: (مُتَقَدِّمُونَ وَمُتَحَضِّرُونَ).

وَهَذَا -لَعَمْرِي- كَلَامٌ مِنْ أَجْمَلِ مَا يَطْرُقُ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

اَلْأُذْنَ وَيَدْخُلُ اَلْقَلْبَ، فِي مَدْحِ اَلدِّينِ وَإِظْهَارِ عَظَمَتِهِ، وَتَحْفِيزِهِ فِي قُلُوبِ اَلنَّاسِ فِي عَصْرٍ بِتْنَا نَرَى الكَثِيرَ مِنْ أَبْنَاءِ أُمَّتِنَا قَدْ جَعَلُوا دِينَهُمْ وَحَضَارَتَهُمْ وَرَاءَهُمْ ظِهْرِيًّا.

وَلَكِنْ عَلَى اَلرَّغْمِ مِن اِنْبِهَارِي بِمُجْمَلِ وَعْيِهِمْ -هَذَا- بِدِينِ رَبِّ اَلْعَالَمِينَ، وَتَقْدِيرِهِمْ اَلْعَظِيمِ لِهَذَا اَلْمَنْهَجِ اَلْقَوِيمِ؛ **إِلَّا** أَنَّنِي اِسْتَذْكَرْتُ حَدِيثَ رَسُولِنَا اَلْكَرِيمِ -عَلَيْهِ أَفْضَلُ اَلْصَلَاةِ وَاَلتَّسْلِيمِ- إِذْ قَالَ: ((... حَتَّى **تَرْجِعُوا** إِلَى دِينِكُمْ))؛ فَاِسْتَوْقَفَنِي هَذَا اَللَّفْظُ، وَأَطْرَقْتُ مُتَأَمِّلاً مَعْنَاهُ، فَوَجَدْتُ أَنَّ اَلرُّجُوعَ لَا يَعْنِي دَائِمًا أَنْ يَكُونَ إِلَى شَيْءٍ فِي اَلْخَلْفِ، **وَإِنَّمَا اَلْمُرَادُ بِهِ هُنَا: اَلْعَوْدَةُ إِلَى اَلشَّيْءِ اَلصَّحِيحِ اَلَّذِي اِنْحَرَفْنَا عَنْهُ**؛ كَمَثَلِ سَائِقِ سَيَّارَةٍ اِنْحَرَفَ عَنْ مَسَارِهِ الصَحِيحِ،

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ظَـانًّا أَنَّـهُ اَلْأَفْضَـلَ وَاَلْأَقْـرَبَ أَو اَلْأَجْمَـلَ وَاَلْأَمْتَعَ، فَلَمَّا أَدْرَكَ اَلْخَطَأَ وَاَلْخَطَرَ (رَجَعَ) إِلَى اَلْمَسَارِ اَلصَّحِيحِ اَلَّذِي هُوَ دَائِمًا مُتَقَدِّمٌ لَا يُوَازِيهِ فِي اَلتَّقَدُّمِ وَاَلْأَفْضَلِيَّةِ مَسَارٌ آخَرُ.. وَمَا اَلتَّخَلُّفُ وَاَلرَّجْعِيَّةُ إِلَّا فِي سِوَاهُ!

وَقَدْ يَضْطَرُّهُ اَلْأَمْرُ -بِحَسَبِ اَلطَّرِيقِ- أَنْ يَسْتَدِيرَ اِسْتِدَارَةً كَامِلَةً إِلَى اَلْوَرَاءِ، لِيَعُودَ أَدْرَاجَهُ حَيْثُ نُقْطَةُ اَلْبِدَايَةِ.. وَفِي طَرِيقِ عَوْدَتِهِ -هَذِهِ- يَقُومُ بِعَمَلِيَّةِ **تَصْفِيَةٍ** لِحِسَابَاتِهِ، وَمِنْ ثَمَّ يَقُومُ بـ**تَرْبِيَةِ** نَفْسِهِ عَلَى هَذَا اَلصَّفَاءِ.

فَـ (اَلْفِعْلُ: **رَجَعَ**) -إِذَنْ- قَدْ يَحْمِلُ مَعَانِيَ أَفْعَالٍ أُخْرَى -بِحَسَبِ اَلسِّيَاقِ وَاَلْمَقَامِ-، وَهَذَا ظَاهِرٌ لِمَنْ يُرَاجِعُ اِسْتِخْدَامَاتِ اَللُّغَةِ اَلْعَرَبِيَّةِ؛ فَهُوَ -مَثَلاً-:

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يَتَضَمَّنُ مَعْنَى اَلتَّوْبَةِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: {وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

وَيَتَضَمَّنُ مَعْنَى اَلاهْتِدَاءِ: (اَلرُّجُوعُ إِلَى اَللهِ).

وَمَعْنَى اَلانْصِرَافِ: (رَجَعَ مِن اَلْعَمَلِ).

وَمَعْنَى اَلطَّاعَةِ وَالْإِذْعَانِ: (رَجَعَ إِلَى قَوْلِ فُلَانٍ).

وَمَعْنَى اَلرِّدَّةِ: (رَجَعَ عَنْ دِينِهِ).

وَمَعْنَى الوَعْيِ: (رَجَعَ إِلَى رُشْدِهِ).

وَمَعْنَى اَلصَّحْوَةِ: (رَجَعَ إِلَيْهِ عَقْلُهُ).

وَمَعْنَى اَلاسْتِدْرَاكِ: (رَجَعَ عَنْ خَطَئِهِ).

وَمَعْنَى اَلْأَصَالَةِ: (رَجَعَ إِلَى اَلْأَصْلِ).

وَمَعْنَى اَلنَّقْضِ: (رَجَعَ عَنْ رَأْيِهِ).

كَمَا يَتَضَمَّنُ مَعْنَى اَلاسْتِشَارَةِ: (رَجَعَ إِلَى اَلْأُسْتَاذِ)، أَوْ مَعْنَى اَلانْتِقَادِ أَيْضًا: (رَجَعَ إِلَى فُلَانٍ، أَيْ: رَاجَعَهُ)، أَوْ مَعْنَى اَلْبَحْثِ وَاَلتَّحَقُّقِ: (رَجَعَ إِلَى اَلْمُعْجَمِ)؛ وَهَذِهِ اَلثَّلَاثَةُ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

اَلْأَخِيرَةُ تُفِيدُ **مَعْنَى اَلْمُرَاجَعَةِ**.

«فَلِلْعَرَبِ أَمْثَالٌ وِاشْتِقَاقَاتٌ وَأَبْنِيَةٌ، وَمَوْضِعُ كَلَامٍ يَدُلُّ عِنْدَهُمْ عَلَى مَعَانِيهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ؛ وَلِتِلْكَ اَلْأَلْفَاظِ مَوَاضِعُ أُخَرُ، وَلَهَا -حِينَئِذٍ- دَلَالَاتُ أُخَرُ؛ فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهَا جَهِلَ تَأْوِيلَ اَلْكِتَابِ وَاَلسُّنَّةِ وَاَلشَّاهِدِ وَاَلْمَثَلِ، فَإِذَا نَظَرَ فِي اَلْكَلَامِ وَفِي ضُرُوبٍ مِن اَلْعِلْمِ -وَلَيْسَ هُوَ مِنْ أَهْلِ هَذَا اَلشَّأْنِ- هَلَكَ وَأَهْلَكَ» [كتاب الحيوان: ١ / ١٠٢].

وَإِذِ الْمَقَامُ عَنْ حَدِيثِ **اَلرُّجُوعِ وَاَلْمُرَاجَعَةِ**، فَيَحْسُنُ أَنْ يُذْكَرَ بِتَمَامِهِ لِلتَّأَمُّلِ وَاَلنَّظَرِ:

رَوَى ابْنُ عُمَرَ -رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اَللَّهِ -صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: ((إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ اَلْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ اَلْجِهَادَ فِي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سَبِيلِ اَللهِ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ عَنْكُم حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ)) [السلسلة الصحيحة: حديث رقم (١١)].

○ (اَلْعِينَةُ): حِيلَةٌ رِبَوِيَّةٌ...، وَمَا أَخْطَرَ اَلرِّبَا اَلَّذِي أَعْلَنَ اَللهُ اَلْحَرْبَ عَلَى أَهْلِهِ؛ فَقَالَ: {فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ}[البقرة: ٢٧٩].

وَمَا أَبْعَدَ اَلنَّاسَ عَنْ فِقْهِ أَحْكَامِ اَلرِّبَا!

وَمَا أَشَدَّ مَكْرَ اَلْأَعْدَاءِ وَتَحَايُلَهُمْ عَلَى أَحْكَامِ اَللهِ -فِي ذَلِكَ-!

○ (أَخَذْتُمْ أَذْنَابَ اَلْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ): تَعْنِي اَلْحَرْثَ وَاَلزِّرَاعَةَ، وَهِيَ جُمْلَةٌ لَا يُقْصَدُ بِهَا مُجَرَّدَ ذَمِّ مَن اِشْتَغَلَ بِالْحَرْثِ وَاِهْتَمَّ بِالزَّرْعِ، وَإِنَّمَا اَلْمَقْصُودُ ذَمُّ مَنْ اِشْتَغَلَ بِالْحَرْثِ وَرَضِيَ بِالزَّرْعِ اِسْتِقْتَالاً مِنْهُ عَلَى

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

اَلدُّنْيَا حَتَّى صَارَ ذَلِكَ أَكْبَرَ هَمِّهِ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ طَرِيقَةً لِلْعَيْشِ اَلْكَرِيمِ، وَمُسَاهَمَةً فِي صُنْعِ حَضَارَةِ اَلْأُمَّةِ وَاَلْقِيَامِ بِوَاجِبَاتِهَا، وَوَسِيلَةً لِإِعَانَتِهِ عَلَى اَلْعَمَلِ اَلصَّالِحِ اَلَّذِي هُوَ ذُخْرُهُ لِلْآخِرَةِ؛ فَالْحَرْثُ وَالزَّرْعُ سَيَكُونَانِ مِنْ جُمْلَةِ اَلْعِبَادَاتِ اَلَّتِي يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اَللهِ إِنْ خَلُصَت اَلنِّيَّةَ للهِ جَلَّ فِي عُلَاهُ؛ فَـ((إِنَّمَا لِكُلِّ اِمْرِئٍ مَا نَوَى))[متفق عليه].

○ ثُمَّ؛ نَتِيجَةُ اَلرُّكُونِ إِلَى اَلدُّنْيَا وَمَلَذَّاتِهَا وَاَلانْشِغَالِ بِدِينَارِهَا وَدِرْهَمِهَا: (تُرِكَ اَلْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ) وَهُوَ سَنَامُ هَذَا اَلدِّينِ، وَاَلْمَقْصُودُ بِهُ هُنَا: (اَلْجِهَادُ اَلْقِتَالِيُّ) اَلَّذِي هُوَ حِصْنُ اَلْأُمَّةِ وَاَلْحَضَارَةِ، وَرُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ هَيْبَتِهَا وَعَلْيَائِهَا؛ بَلْ إِنَّ اَلْقِتَالَ شَيْءٌ طَبْعِيٌّ فِي اَلْبَشَرِ لَا تَخْلُو عَنْهُ أُمَّةٌ وَلَا جِيلٌ، وَهُوَ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ضَرُورَةٌ اِجْتِمَاعِيَّةٌ طَالَمَا كَانَتْ هُنَاكَ أَطْمَاعٌ وَمَظَالِمُ.

وَالْحَدِيثُ عَنْ الْجِهَادِ لَا يَزَالُ أَهَمَّ تُكْأَةٍ يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا أَصْحَابُ الغَزْوِ الْفِكْرِيِّ فِي خَلْطِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ وَتَشْوِيهِ صُورَتِهِ السَّمْحَةِ النَّاصِعَةِ، وَمُحَاوَلَةِ فَتْحِ الثُّغْرَاتِ وَاسْتِغْلَالِهَا عَنْ طَرِيقِ مَا دَسُّوهُ وَاقْتَطَعُوهُ مِنْ نُصُوصٍ وَقِصَصٍ أَوْ عَنْ طَرِيقِ مُمَارَسَاتِ بَعْضِ الْجَهَلَةِ وَالْمُنْحَرِفِينَ مِنْ أَبْنَاءِ هَذَا الدِّينِ (!) بُغْيَةَ التَّشْكِيكِ بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ.

وَكَيْفَ لَا يُجَيِّشُونَ جُيُوشَهُمْ -بِأَنْوَاعِهَا- لِمُحَارَبَةِ ذَلِكَ، وَهُمْ يُدْرِكُونَ أَنَّ هَذَا الرُّكْنَ إِذَا اسْتَيْقَظَ فِي الْمُسْلِمِينَ -بِضَوَابِطِهِ الَّتِي شَرَعَهَا لَهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ- وَأَصْبَحَ ذَا أَثَرٍ فَاعِلٍ فِي حَيَاتِهِمْ، فَلَنْ تَقِفَ أَيُّ قُوَّةٍ -مَهْمَا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بَلَغَتْ- فِي وَجْهِ اَلْفَتْحِ اَلْإِسْلَامِيِّ وَيَقْظَةِ اَلْأُمَّةِ وانْتِشَارِ هَذَا اَلدِّينِ.

إِنَّ هَذَا اَلْحَدِيثَ اَلنَّبَوِيَّ يَدُورُ مَوْضُوعُهُ حَوْلَ (اَلرُّكُونِ إِلَى اَلدُّنْيَا)، وَفِي هَذَا (اَلرُّكُونِ) يَكُونُ فِقْدَانُ أَسْبَابِ اَلرِّفْعَةِ، وَاَلنَّصْرِ، وَاَلْقُوَّةِ، سَوَاءٌ كَانَتْ تِلْكَ اَلْقُوَّةُ مَعْنَوِيَّةً (بِصِحَّةِ اَلْإِيمَانِ وَاَلْمُعْتَقَدِ)، أَوْ مَادِّيَّةً (بِتَوَفُّرِ اَلْعَتَادِ وَاَلْعَدَدِ)؛ فَأَمَّا اَلْمَعْنَوِيَّةُ فَإِنَّ اَللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- يَقُولُ: {إِنْ تَنْصُرُوا اَللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}[محمد:٧]، وَأَمَّا اَلْمَادِّيَّةُ فَيَقُولُ: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اِسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ اَلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اَللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اَللَّهُ يَعْلَمُهُمْ}[الأنفال:٦٠].

فَلَمَّا غَابَتْ هَذِهِ اَلْأَسْبَابُ وَاَلْعَوَامِلُ؛ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْنَا **اَلذُّلَّ**؛ وَتِلْكَ **سُنَّتُهُ** فِي خَلْقِهِ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَبَدَّلُ؛ وَقَدْ حَدَّثَنَا بِذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِن الْآيَاتِ والقَصَصِ الَّتِي ضَرَبَهَا لَنَا لِلْعِبْرَةِ -فِي كِتَابِهِ الْمُعْجِزِ-، وَزَادَ عَلَيْهَا بِأَنْ حَثَّنَا عَلَى أَنْ نَسِيرَ فِي أَرْضِهِ فَنَبْحَثَ وَنَتَثَبَّتَ وَنَعْمَلَ.

دَعُونَا نَنْظُرُ -مَعًا- وَنَتَأَمَّلُ كُلَّ كَلِمَةٍ فِي الْآيَاتِ التَّالِيَةِ وَمَا تَعْنِيهِ وَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ، قَالَ اللهُ -تَعَالَى-: {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ **سُنَنٌ** فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ **فَانْظُرُوا** كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * **هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ** وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا **وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ **وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * **وَلِيُمَحِّصَ**

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

اَللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ اَلْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا اَلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اَللَّهُ اَلَّذِينَ **جَاهَدُوا** مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ **اَلصَّابِرِينَ**} [آل عمران: ١٣٧-١٤١].

فَاَلْأُمَّةُ اَلْمُسْلِمَةُ لَيْسَ لَهَا اَلْحَصَانَةُ بِالاسْمِ الَّذِي حَمَلَتْهُ -أَوْ حُمِّلَتْهُ-، فَإِنَّهَا -(هِيَ) وَ(حَضَارَتَهَا)- عُرْضَةٌ لِتَحَدِّيَاتِ اَلْخُنُوعِ وَاَلتَّدَهْوُرِ وَاَلانْهِيَارِ بِمُجَرَّدِ غِيَابِ شُرُوطِ اَلتَّمْكِينِ اَلنَّفْسِيَّةِ وَاَلْمَادِّيَّةِ -مِثْلُهَا مِثْلُ غَيْرِهَا مِن اَلْأُمَمِ-.

وَقَدْ أَشَارَ رَبُّنَا إِلَى اَلشَّرْطِ (اَلْأَسَاسِ) لِهذَا اَلتَّمْكِينِ فِي قَوْلِهِ -سُبْحَانَهُ-: {وَعَدَ اَللَّهُ اَلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا اَلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي اَلْأَرْضِ كَمَا اِسْتَخْلَفَ اَلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ اَلَّذِي اِرْتَضَى

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ **يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}[النور: ٥٥]. فَتَحْقِيقُ الْعُبُودِيَّةِ الْخَالِصَةِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هِيَ شَرْطُ هَذَا التَّمْكِينِ، وَهِيَ الْمُتَمَثِّلَةُ فِي تَحْقِيقِ شَهَادَةِ أَنْ "لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ"، وَتَكُونُ بِإِيمَانٍ وَطَاعَةٍ وَمُتَابَعَةٍ لِرَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، الْمُتَمَثِّلَةِ فِي تَحْقِيقِ شَهَادَةِ أَنَّ "مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ"؛ وَلِذَلِكَ قَالَ -سُبْحَانَهُ- فِي الْآيَةِ الَّتِي سَبَقَتْهَا -مِن السُّورَةِ نَفْسِهَا-: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}؛ وَمِنْ آثَارِ تَحَقُّقِ هَاتَيْنِ الشَّهَادَتَيْنِ: ظُهُورُ الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُمَا، حَيْثُ قَالَ -عَزَّ وَجَلَّ- فِي الْآيَةِ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

اَلَّتِي تَلِي اَلْآيَتَيْنِ اَلسَّابِقَتَيْنِ: {وَأَقِيمُوا اَلصَّلَاةَ وَآتُوا اَلزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اَلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}.

وَعَلَى هَذَا كَانَ مَدَارُ اَلدِّينِ: (اَلْإِسْلَامُ وَاَلْإِيمَانُ وَاَلْإِحْسَانُ)؛ فَالْإِسْلَامُ فِكْرَةٌ، وَاَلْإِيمَانُ يَقِينٌ، وَاَلْإِحْسَانُ عَمَلٌ؛ وَكُلَّمَا اِتَّسَعَت اَلْفِكْرَةُ وَتَعَمَّقَتْ= زَادَ اَلْيَقِينُ وَثَبَتَ، وَكُلَّمَا زَادَ اَلْيَقِينُ= كَانَ دَافِعًا إِلَى مَزِيدٍ مِن اَلْعَمَلِ وَاَلتَّطْبِيقِ، وَكُلَّمَا زَادَ اَلْعَمَلُ= تَفَتَّحَتْ اَلْآفَاقُ لِمَزِيدٍ مِن اَلتَّفْكِيرِ... وَهَكَذَا فِي دَائِرَةٍ لَا تَنْقَطِعُ، تَحْقِيقًا لِمَبْدَأِ (زِيَادَةِ اَلْإِيمَانِ وَنُقْصَانِهِ) كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}[محمد:١٧]، وَقَوْلُ رَسُولِهِ -صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((أَكْمَلُ اَلْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا))[حديث صحيح، رواه أحمد وغيره].

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وَمِنْ هُنَا نُوقِنُ بِأَنَّ حُدُوثَ الاسْتِخْلَافِ وقِيَامَ الْحَضَارَةِ وَاسْتِمْرَارِيَّتَهَا إِنَّمَا هُوَ رَهْنٌ بِمَا يَصْنَعُهُ أَبْنَاءُ الْأُمَّةِ أَنْفُسُهُمْ فِي ضَوْءِ الْمَعَايِيرِ وَالْعَوَامِلِ وَالضَّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي إِذَا أُسِيءَ التَّعَامُلُ مَعَهَا سِيقَت الْأُمَّةُ وَحَضَارَتُهَا إِلَى مَصِيرِهَا الْمَحْتُومِ.. إِلَى حَيْثُ مَا قَضَاهُ اللهُ بِسُنَنِهِ الْكَوْنِيَّةِ؛ فَلَيْسَ ثَمَّةَ فِي سُنَنِ اللهِ فِي الْخَلْقِ مُحَابَاةٌ أَوْ مُدَاجَاةٌ -حَاشَاهُ- وَإِنَّمَا هِيَ الْأَسْبَابُ الَّتِي تَقُودُ إِلَى نَتَائِجِهَا الطَّبِيعِيَّةِ الْعَادِلَةِ.

فعَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، قَالَ: ((وَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

تَنَافَسُوهَا؛ فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُم))[متفق عليه].

يَلْتَقِي هَذَا اَلْحَدِيثُ اَلنَّبَوِيُّ اَلشَّرِيفُ -جُمْلَةً- بِحَدِيثِ (اَلرُّجُوعِ وَاَلْمُرَاجَعَةِ) -مِحْوَرِ مَوْضُوعِنَا- فَيُشَخِّصُ لِنَا اَلسَّبَبَ: وَهُوَ **اَلرُّكُونُ إِلَى اَلدُّنْيَا**.. ثُمَّ اَلنَّتِيجَةَ: وَهِيَ اَلْهَلَاكُ وَاَلتَّدَهْوُرُ وَاَلذُّلُّ وَاَلْهَوَانُ... مِثْلُمَا فُعِلَ بِمَنْ كَانَ قَبْلَنَا، وَهَذِهِ هِيَ سُنَّةُ اَللهِ، كَمَا جَاءَ فِي الآيَاتِ اَلسَّابِقَةِ: {وَتِلْكَ اَلْأَيَّامُ **نُدَاوِلُهَا** بَيْنَ اَلنَّاسِ}.. نَعَمْ (بَيْنَ اَلنَّاسِ)، وَهَذَا يَعْنِي عُمُومَ هَذِهِ اَلسُّنَّةِ اَلَّتِي لَا مَحِيصَ عَنْهَا، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ هَذَا اَلْمَبْدَأَ -أَيْ: اَلْمُدَاوَلَةُ- لَا يَأْتِي بِصِيغَةٍ حَتْمِيَّةٍ مُقْفَلَةٍ وَنُزُوعٍ مُتْرَعٍ بِالتَّشَاؤُمِ كَمَا هُوَ اَلْحَالُ فِي اَلْمَذَاهِبِ اَلْوَضْعِيَّةُ، لَكِنَّهُ -عَلَى اَلْعَكْسِ- يُوحِي بِـ(اَلْحَرَكَةِ اَلدَّائِمَةِ) وَ(اَلتَّجَدُّدِ) وَ(اَلْأَمَلِ)، وَيُقَرِّرُ بِأَنَّ اَلتَّارِيخَ لَيْسَ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

حَكْرًا عَلَى أَحَدٍ، وَمِنْ ثَمَّ فَلَا مُسَوِّغَ لِلْيَأْسِ وَالِانْهِزَامِيَّةِ؛ فَإِنَّ الَّذِينَ نَرَاهُمْ فِي الْقِمَّةِ الْآنَ سَيَقْضِي اللهُ بِأَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ حَرَكَةُ الزَّمَنِ إِلَى الْحَضِيضِ، وَالَّذِينَ هُمْ فِي الْقَاعِ **سَتَصْعَدُ** بِهِمْ الْحَرَكَةُ -نَفْسُهَا- إِلَى الْقِمَّةِ، **مِنْ خِلَالِ إِيمَانِهِمْ وَعَمَلِهِمْ، أَيْ: بِحَسَبِ اخْتِيَارِهِمْ وَحَرَكَتِهِمْ.**

فَإِنَّ **الْمُدَاوَلَةَ الْإِلَهِيَّةَ** تَحْمِلُ كَافَّةَ الشُّرُوطِ التَّارِيخِيَّةِ الْمُوجِبَةِ لَهَا، وَهِيَ:

- **حَرَكَةُ** الْعَالَمِ الْمُسْتَمِرَّةُ.

- **وَنَتَائِجُ** الصِّرَاعِ الْفَعَّالِ.

- وَدَيْمُومَةُ **الْأَمَلِ** الْبَشَرِيِّ الَّذِي يَرْفُضُ الْحُزْنَ وَالْهَوَانَ.. {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ} **بِشَرْطِ {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}.**

فَلَا خُرُوجَ مِن الْحَضِيضِ وَالْهَوَانِ وَالتَّدَهْوُرِ الَّذِي أَصَابَنَا **إِلَّا بِالْعِلَاجِ** الَّذِي جَاءَ ذِكْرُهُ فِي

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

اَلْحَدِيثِ اَلْأَوَّلِ: (حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ)..

كَلَامٌ فَصْلٌ، لَا تَشْتِيتَ فِيهِ وَلَا تَجْزِئَةَ؛ فَلَمْ يُعَدِّدْ أَصْنَافًا، وَلَمْ يَعُدْ إِلَى أَقْرَبِ مَذْكُورٍ وَهُوَ (اَلْجِهَادُ) لِيَقُولَ (حَتَّى تُجَاهِدُوا)! وَلَا إِلَى مَا قَبْلَهُ لِيَقُولَ (حَتَّى تَتْرُكُوا اَلرِّبَا أَو اَلانْشِغَالَ بِالدُّنْيَا)، بَلْ عَادَ إِلَى اَلْأَصْلِ: (اَلدِّينِ) (اَلْعَقِيدَةِ) (اَلتَّوْحِيدِ).. فَمِنْ هُنَا يَكُونُ اَلْمُنْطَلَقُ؛ إِذْ لَا يَتَحَقَّقُ اَللَّاحِقُ إِلَّا بِالسَّابِقِ، كَالْبِنَاءِ.

وَقَدْ وَرَدَ حَدِيثٌ آخَرُ يُشْبِهُ حَدِيثَ اَلْمُرَاجَعَةِ اَلَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِهِ؛ قَالَ -صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ)) قَالُوا: فَكَيْفَ لَنَا يَا رَسُولَ اَللَّهِ؟ وَكَيْفَ نَصْنَعُ؟ قَالَ: ((تَرْجِعُونَ إِلَى أَمْرِكُمُ اَلْأَوَّلِ))[السلسلة الصحيحة: حديث رقم (٣١٦٥)].

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَجَاءَ فِي اَلْأَثَرِ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ اَلْعِلْمِ: ((لَنْ يَصْلُحَ آخِرُ هَذِهِ اَلْأُمَّةِ إِلَّا بِمَا صَلَحَ بِهِ أَوَّلُهَا، ومَا لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ دِينًا لاَ يَكُونُ اَلْيَوْمَ دِينًا)) وَفِي رِوَايَةٍ: ((لَنْ يُصلِحَ آخِرَ هَذِهِ اَلْأُمَّةِ إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا...))، جُمْلَةٌ إِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ كَلَامِ اَلنُّبوَّة فَإِنَّ عَلَيْهَا مَسْحَةً مِنْ اَلنُّبُوَّةِ، وَلَمْحَةً مِنْ رُوحِهَا، وَوَمْضَةً مِنْ إِشْرَاقِهَا...

فَعَوَامِلُ صَلَاحِ اَلْأُمَّةِ وَإِصْلَاحِهَا هِيَ مَا قَامَ بِهِ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ -صَلَّى اَللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَصْحَابُهُ؛ فِي مَكَّةَ -أَوَّلاً-، وَفِي اَلْمَدِينَةِ -ثَانِيًا-، حَسَبَ مَنْهَجٍ عَظِيمٍ جَعَلَهُ اَللهُ شَرِيعَةً لِكُلِّ مَنْ أَرَادَ اَلصَّلَاحَ وَاَلْعِزَّةَ وَاَلْفَوْزَ وَاَلرِّفْعَةَ.

إِذَنْ؛ اَلشَّرطُ وَاضِحٌ، وَاَلْعِلَاجُ بَيِّنٌ؛ فَنُهُوضُنَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِهَذِهِ اَلطَّرِيقَةِ، مُبْتَدِئِينَ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بِأَنْفُسِنَا... مُتَأَمِّلِينَ قَوْلَ رَبِّنَا: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ}، وَقَدْ قَالَ عَنْهَا بَعْضُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ -بِمَا مَعْنَاهُ-: (هَذِهِ الْآيَةُ ذَكَرَهَا رُبَّنَا فِي سُورَةِ الرَّعْدِ، وَذَكَرَ قَبْلَهَا وَبَعْدَهَا آيَاتٍ كَوْنِيَّةً؛ **وَالْآيَاتُ الْكَوْنِيَّةُ لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَبَدَّلُ**؛ فَجَعَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ ضِمْنِ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ، فَلَا يُمْكِنُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ تَتَغَيَّرَ وَأَنْ تَتَبَدَّلَ أَحْوَالُهَا إِلَّا وَفْقَ هَذَا التَّغْيِيرِ، وَلَا يُوجَدُ عِزٌّ لِلْمُسْلِمِينَ وَنُهُوضٌ لِحَضَارَتِهِمْ إِلَّا وَفْقَ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ؛ **فَكُلُّ شَيْءٍ يُشْغِلُنَا عَنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ لَا بُدَّ أَنْ نَأْبَاهُ**).

وَالرُّجُوعُ لَا يَكُونُ بِالتَّمَسُّكِ بِالدِّينِ -فَحَسْبُ-، بَلْ -أَيْضًا- **بِمُرَاجِعَةِ النَّفْسِ وَنَوَازِعِهَا وَأَحْوَالِهَا**

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بَيْنَ اَلْحِينِ وَاَلْآخَرِ، فَقَدْ جُبِلَ اَلْقَلْبُ عَلَى اَلتَّقَلُّبِ، وَاَلْمِزَاجُ عَلَى اَلتَّمَوُّجِ؛ وَمَعَ هَذِهِ اَلْمُرَاجَعَةِ لَا بُدَّ مِنْ اَلْإِكْثَارِ مِنْ اَلْأَدْعِيَةِ اَلْمَأْثُورَةِ: ((يَا مُقَلِّبَ اَلْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ))[السلسلة الصحيحة: حديث رقم (٢٠٩١)]، و((اَللَّهُمَّ اِهْدِنِي لِأَحْسَنِ اَلْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاِصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ))[رواه مسلم: حديث رقم (٧٧١)]، و((اَللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ اَلْأَخْلَاقِ وَاَلْأَعْمَالِ وَاَلْأَهْوَاءِ))[صحيح الجامع: حديث رقم (١٢٩٨)].

إِنَّهُ لَا عِلَاجَ لِأَدْوَاءِ اَلْمُسْلِمِينَ **إِلَّا (أَنْ يَكُونُوا مُسْلِمِينَ)**.. يَعُودُونَ إِلَى اَلْعَمَلِ بِدِينِ اَللَّهِ اَلَّذِي اِرْتَضَى لَهُمْ، وَيَتَمَسَّكُونَ بِهَدْيِ نَبِيِّهِمْ وَأَصْحَابِهِ فِي مَنْهَجِهِمْ؛ لَا يُعْرِضُونَ عَنْهُ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عِنَادًا وَلَا يَتْرُكُونَهُ تَأَوُّلًا، وَيُجَاهِدُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَنَزَوَاتِ أَنْفُسِهِمْ، وَيَخْضَعُونَ لِأَمْرِ رَبِّهِمْ.

فَهَذَا وَاجِبُنَا **إِذَا تَاهَتْ بِنَا الدُّرُوبُ**، وَأَخْطَأْنَا الْمَسِيرَ.

وَلَيْسَ **الرُّجُوعُ** إِلَى الْإِسْلَامِ فِي شِعَارَاتٍ لَا أَثَرَ لَهَا فِي النُّفُوسِ وَلَا فِي الْوَاقِعِ، كَمَنْ يَكْتُبُ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ) وَنَحْوَهَا عَلَى اللَّوْحَاتِ وَالْجُدْرَانِ وَالرَّايَاتِ وَالْكُتُبِ...، بَلْ إِنَّ **الرُّجُوعَ** إِلَى الْإِسْلَامِ هُوَ **مَبْدَأٌ** يَجِبُ أَنْ **يَرْسَخَ** فِينَا، **فَنَمْلَأَ** قُلُوبَنَا بِـ(لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ) **-بِمَعَانِيهَا السَّامِيَةِ-**، وَنَجْعَلَهَا **بَاعِثَ أَعْمَالِنَا وَهَدَفَ حَيَاتِنَا**.

عُمَرُ السِّنَوِيّ الخَالِدِيّ

الْخَمِيسِ ١٤٣٤/٨/١١هـ

الْمُوَافِقُ: ٢٠١٣/٦/٢٠م